الاستكبار ومرادفاته في القرآن الكريم

(دراسة في الدلالات والمفاهيم)

الأستاذ المساعد
عامرة تمكين نعمه الياسري
جامعة الكوفة ـ كلية التربية الأساسية
Aameri09590@gmail.com

Superciliousness and its Synonyms in the Glorious Qur'an: A Study of Connotations and Concepts

Asst. Prof.
Aamirah Tamkeen Ni'mah Al-Yasiri
University of Koufah - College of Basic Education

الملخص:

لقد الصقت قوى الإستكبار العالمي بالإسلام التهم والشبهات حتى ظهرت على الساحة الاجتماعية عند غيرالشعوب الإسلامية، أو حتى بعض الشعوب الإسلامية نتيجة الإعلام المضلل لذلك، ظهرت ردات فعل عنيفة.

فالتغيرات السياسية على خارطة البلدان الإسلامية ما هي إلا نتيجة تخطيط لقوى الإستكبار العالمي. تحت مسميات فقدت مفاهيمها تماما، (كحقوق الإنسان، والمجتمع المدني، أو مكافحة الإرهاب، أو الديمقراطية، والربيع العربي، وغيرها).

ولما كان الإسلام دين محبة وألفة وسلام وتعايش وأمان بين الشعوب والمجتمعات، فلم يترك هذا الأمر فرطا. وإنما احتوت تعاليمه الحلول والمفاهيم لكل العصور والأماكن، ولعل القرآن الكريم أوثق المصادر الإسلامية وأدقها ان يكون شاهدا على ذلك، فقد احتوت آياته معاني تلك المفاهيم ودلالات تلك المصطلحات، ومنذ نزوله. وأوضح دسائس الإستكبار والمتنفذين وسبلهم للسيطرة على المستضعفين وتسخيرهم لتنفيذ مآربهم.

وهذا بحث موجز في توضيح تلك المفاهيم ودلالاتها ليوضح للمتلقي حقيقة هدي الإسلام، وبيان تعاليمه في الخطاب الديني مع المخالف والموافق في الرأي والعقيدة، أو المذهب والقومية، عساني ان اوفق للدفاع عن الإسلام وأهدافه العليا في الحياة الحرة الكريمة للشعوب والأفراد، وفضح سبل ومناهج المستكبرين، ودسائس السياسات المنحرفة عن مفاهيمها هي الأخرى.

الكلمات المفتاحية: (القرآن الكريم، الموضوعية، المفسرون، المستكبرون، المستضعفون، الدلالات، المفاهيم، الخطاب الديني)

Abstract:-

Powers of World Superciliousness have associated Islam with charges and misconceptions. Therefore، there appeared - on the social scene of non-Muslim people، and even of some Muslim ones - violent reactions. The political changes in the map of Muslim countries are only conspiracies conducted by world powers of superciliousness under various titles and names، which have lost their essence، e.g. human rights، civil society، terror، democracy، etc. As Islam is a religion of love، peace، and coexistence among peoples and communities، this matter requires that we do something، and not stand idly by.

The Qur'an ever since its appearance has in its Ayaat (verses) references to these concepts and connotations. It has tackled the machinations of the Supercilious and Powerful and their means to achieve their ends- controlling the wretched and oppressed and employing them to achieve their objectives.

This study aims at exploring these concepts and their connotations to show the reader that Islam is the religion of guidance. It also tries to show the teachings of this religion in the religious discourse and how people stand for or against in matters of opinion، doctrine، faith or nationality.

The author hopes that we have shed light on the goals of Islam - to guarantee a dignified life for both peoples and individuals and to uncover the methods and ways of the Supercilious and their aberrant policies.

Key words: the Glorious Qur'an; objectivity; interpreters; the Supercilious، the Oppressed، concepts، connotations

المقدمة:

هذا بحث متواضع بين كلمات الله التامة في قرآنه الكريم، حاولنا فيه البحث عن دلالات (الإستكبار) ومرادفاتها، وموقف القرآن الكريم منه، معتمدين على آراء اشهر المفسرين بين اشهر مدارس الفكر الاسلامي، توخيا للموضوعية، وبين القديم والحديث تواصلا بين الإصالة والتجديد، بمنهج اقرب للإختصار منه الى الإسهاب لحاجة ظروف البحث الى ذلك.

فاجملنا الحديث عن (مصطلحات مفاهيم الإستكبار ودلالاتها) وفق المنهج القرآني، ثم فصلنا القول في مواقف المفسرين حول ذلك، وختمناه بما تعانيه الأمة الإسلامية اليوم من الإستكبار ونتائجه عليها، لعلنا نوفق لوضع اصبع ابهام في خدمة كتاب الله الأكبر، فان وفقنا فذلك من توفيق الله وفضله، وان اخفقنا فذلك من سجايا الإنسان ونواياه، وفي الحالتين نرجو من الله المغفرة والعفو فيما اقدمنا عليه. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾

مصطلحات المفاهيم ودلالاتها في المنهج القرآني:

يعد القرآن الكريم الفيصل الأدق عند اختلاف الرؤى وتعدد الانتماءات عند المسلمين، فهو النص المقدس عندهم الذي لا ينتابه زيف أو تحوير لدى المسلمين كافة، بعد ان انزوت الآراء التي اتهمته بالتحريف في زيادة أو نقصان، وشذت الآراء التي تناولت ذلك وأصبح الجدال فيه عقيما.

لذلك تكون آياته الكريمة الدليل الأقوى، والبرهان الأمثل في البحث عن الحقيقة. واختلاف القراءات للنص القرآني لا تتعدى ثوابته في الرفض أو القبول، قديما أو حديثا، وحديث الإصالة والمعاصرة فيه أمر ثابت.

فهو للإصالة أساسا وللمعاصرة نبراسا، لا تنتهي علومه، ولا تنطوي آفاقه.

فهو شريعة الحياة على الأرض في شوطها الأخير، إنطلاقا من إيماننا بخاتمية الرسالة التي نزل بها. وقد نزل بأساليب بلاغية جديدة لم تكن منطلقة من تطور حاصل في الأساليب الأدبية أو الفنية للكتابة في امة حضارية قد قطعت شوطا كبيرا في الأدب والكتابة أو فنونها،

أو في التشريع والعلم. كي نقول ان بروز هكذا كتاب في ذلك الوسط ما هو إلا حصيلة تطور وإبداع لمحاولات سبقته، بل انه ولد في فراغ كامل للكتابة والتاليف وخاصة في اساليب النثر الفني أو الأدبي، وفي امة تسودها قوانين الغاب في اكثر افعالها، وموروثات لا تمت الى الحضارة أو الثقافة بأية صلة، فليس هناك تشريعات وقوانين ثابتة تفرض على الإنسان عصر ذاك الإلتزام بها، أو عدم التعدي عليها، ولم تكن هناك اية حوارات فلسفية تبحث في اصل خلق الإنسان، واسباب وجوده أو مراحل تطوره، وما قبله أو ما بعده من عوالم.

ولا يمتلك فكرا تاريخيا ثابت ينظر الى التاريخ من خلاله بنظرة عمق يستخرج سننه، ويستنبط احكامه، ويحكم بأن الحاضر حصيلة الماضي والمستقبل نتاج الحاضر.

لذلك جاء القرآن الكريم بداية لا ماضي له، فلم تسبقه شريعة في كتاب كانت من الدقة تعايش الأزمنة بتطورها، وتتحدى الأماكن باختلاف موروثاتها الطبيعية والسكانية.

صحيح ان هناك شعر أو أدب ونثر مروي في عصر نزول القرآن أو قبيل عصره، لربما نجد من يعده القمة في ذلك، ولكن القرآن الكريم لم يكن من سنخه ولا قريبا منه ولا لفنونه. ولذلك نراه قد طغى على ذلك الشعر وتعدى فنون النثر، فتراجع كل ذلك أمامه، واصبح القرآن في المقام الأول من كل ذلك. بل وتباطئت حركة الأدب والشعر كثيرا عند بروزه وفي عصر نزوله.

وللقرآن الفضل الأكبر في تثوير حركة الأدب والنقد في الشعر أو النثر العربي فيما بعد، لأنه فتح العقول وثوَر الأفهام في التأليف والمعرفة والعلم، ولولاه لبقيت الأمة بين الخيام والجمال، ولإندرست كل معالم اللغة العربية، فكانت الحركة الأدبية والعلمية واحدة من تفرعات تلك الثورة العلمية التي احدثها القرآن الكريم للعالم. وأدهشت بلاغته القاصي والداني من ذوي الذائقة البلاغية حتى عرفوها بانها ((إيصال المعنى الى القلب في احسن صورة من اللفظ))[1].

وقسموها على ثلاث طبقات هي:

((منها ما هو أعلى طبقة، ومنها ما هو أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وبين أدنى طبقة. فما كان أعلاها طبقة فهو معجز (وهو بلاغة القرآن الكريم) وما كان

دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس))[٢].

أما الثقافة التي تنتمي الى القرآن الكريم بكافة مفاصلها فهي تختلف عن الثقافات الأخرى، وذلك لإختلاف الأسس التي تعتمدها. إذ ان الثقافة القرآنية تنطلق من نص مقدس عند المؤمنين به ولا يمكن تعديها، لإيمانهم بكونه صادر من مطلع خبير لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، بينما تستند الثقافات الأخرى الى اسس مكتسبة تتأثر بتغيرات الزمان وتباين المكان، وتحورها الأهواء والنوازع، والانتماءات الضيقة.

ومن هذا الإختلاف في الأسس قد تختلف بعض المفاهيم في دلالاتها بين الثقافة القرآنية والثقافات الأخرى ما دامتا قد تعايشتا معا على الحياة.

وقد ينجر هذا الأمر الى مفهومي الفضيلة والرذيلة على نحو الإجمال، واللتين تندرج تحتهما كل افعال العباد على الأرض.

ولعل من نافلة القول ان نعزو إفلاس الأمة الثقافي والحضاري بمعناه الصحيح الى تبني الثقافات الأخرى، وهجر الثقافة القرآنية، ولغة الحوار مع الآخر، وابتكار مصطلحات ومفاهيم لمصطلحات، ودلالات لمفاهيم، دون الرجوع الى دلالاتها أو مفاهيمها في القرآن الكريم، أو تحوير المفاهيم القرآنية الى معاني بعيدة عنها.

وقد دعا القرآن الكريم الى العقلانية والموضوعية والتجرد عن الانتماءات في البحث العلمي ومنهجه الصحيح. وحذر من اتباع ثقافة الأموات دون التحري عن صحتها.

قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (*) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ / سورة الزخرف: ٢٢، ٢٣

وما تعانيه الأمة اليوم من ويلات وفتن انجذم بها حبل الإسلام وكادت معالمه ان تنهد، بما تكالبت عليه ايدي المستكبرين والعتاة والمتمردين على الإنسانية من أعداء أو منتمين له لا يفهمون منه مالم يصل الى تراقيهم مما دعانا ان نبحث في مفاهيم الإستكبار ومرادفات الفاظه.

لذلك سنحاول جاهدين – قدر استطاعتنا – في هذا البحث اعتماد المفهوم القرآني في تحديد مفهوم (الإستكبار) ودلالاته في القرآن الكريم ونتائجه وكيفية مقارعته.

ولرب معترض يعترض على تحليل المفاهيم القرآنية وفق رؤية تجديدية تتساير مع العصر وتتساوق مع الظروف، باعتباره نص إلهي ثابت لا يمكن للبشر أن يضع له دلالات جديدة غير التي وضعت له – على حد قولهم – فالقول بهذا: نعم، ولكن المخاطب بهذه النصوص هو (الإنسان) بكونه الفاعل والمطبق لها، بعيدا عن تباين المكان أو اختلاف الزمان، أو تغيرات الظروف والأشخاص، فاذا كان مفهوم الإنسان قاصر للنصوص القرآنية[٣] ولا يمكنه تحليل النص، فيكون الخطاب بالنص القرآني اذن خطاب موجه الى من لا يفهمه أو لا يعيه، كيف وهو القائل:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[٤].

أو قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٥].

والآية الأولى تتعارض مع قول المعترض، والثانية تدعونا الى التدبر في النص وفهمه وحسب طاقتنا البشرية وبعلوم وفنون وأدوات مساعدة نكتسبها من حياتنا العامة، ومن البديهي ان نختلف بهذه الطاقة وبنسبة اكتساب هذه الفنون والآداب والعلوم، ولهذا سنختلف في الرؤى والنتائج، وما دامت هذه المكتسبات والطاقات تتأثر بالزمان والمكان، فلابد للنص الإلهي ان يكون ناظرا الى هذه الاختلافات نظرة المطلع الخبير العالم بمديات الاختلاف، انطلاقا من القول بعالمية النص وديمومته. مما يدعو الى تقبل المفاهيم المتعددة للنص بما يخدم ثبوت العقائد من توحيد ونبوة ومعاد وغيرها من الثوابت التي لا يمكن تخطيها، وبما لا يحدث ثورة على النص لإنكاره أو التشكيك فيه أو رفضه أو تحويره أو حرفه عن مساره الصحيح.

وانطلاقا من القواعد الثابتة للعلوم المساعدة على فك ألغاز النص – ان كانت هناك ألغاز مستعصية على الباحث فيه – أو فهمه، كالعربية وقواعدها وعلومها، أو غيرها.

وهذا لا يعني إخضاع النص الى تلك القواعد التي وضعها الإنسان كي تكون القواعد أصلا والنص فرعا عليها، فليس الأمر كذلك، ولكن مادامت هذه القواعد والعلوم انطلقت في بدايتها من اثر النص ذاته على الحياة العلمية منذ عصره فلولاه لما كانت هذه العلوم ولم تكون، وباعتبار النص القرآني أدق وأصح مما وصل من تلك النصوص من الخطب أو

الأشعار والمقالات، فقطعي النص اكثر دلالات من الظني، وباعتبار القرآن هو الباعث الحقيقي الذي انطلقت منه العلوم التي فسرت النصوص الأدبية أو نقدتها قياسا الى القرآن، - وإلا لولا القرآن وما حوله لإنتهت اللغة العربية وما تقعدت قواعدها، وما حدث هذا التوسع في المعارف والعلوم -.

فقواعد هذه العلوم اشتقها المشتغلون بها من النص، ولأجل فهم النص القرآني، وعند إعادة تطبيقها عليها فلا مخالفة بينها وبين النص القرآني.

وهذا التواصل في تفسير النص القرآني بين التراث والحاضر، يعد بحق الباعث الحقيقي للتراث الإسلامي في كل عصر، لذا لا ندعو الى البداية في تحليل النص من الصفر ونبذ التراث بما فيه من غث أو سمين، في منهجنا هذا، وانما ندعو الى احياء التراث العلمي باختلافاته المتعددة وفهم النص فهما واعيا يدفع بعجلة الحضارة والثقافة الاسلامية وفق مفهومها الحاضر ونترك الباب مفتوحا للأجيال كي تدلو بدلوها. ((وحتى لا نقع فيما وقع فيه القدماء فان مصداقية النص في منهج تحليل النصوص لا تنبع من دليل خارجي، بل تنبع من تقبل الثقافة للنص وإحتفائها به. لقد اختلف القدماء حول هذه الإشكالية، وانصب خلافهم فيها حول نقطة جزئية هي: هل يحتاج النص الى دليل خارجي لإثبات مصداقيته، أم يتضمن في داخله هذا الدليل؟ واذا كانوا جميعا قد اتفقوا على ضرورة وجود معيار خارجي فانهم اختلفوا في طبيعة هذا المعيار، هل هو (العقل) أم (المعجزة) الباهرة التي تقع على يد الرسول ﷺ؟ وقد انتهى الفكر الديني القديم الى ان المعجزة الكبرى هي (النص) ذاته))[٦].

ونحن بدورنا نؤكد ان ما يرفضه النص القرآني من ثقافة أو معرفة فهو مرفوض في الفكر الاسلامي أو في التطبيق اذا شئنا التطبيق، وما يقبله النص القرآني فهو المقبول، فيكون المعيار للإنتماء الإسلامي للمعرفة والعلوم هو النص القرآني ذاته.

وهذه الأمور الثلاثة - المعجزة والعقل ودورهما في الثقافة - ان وافقنا أي واحدة من القائلين بها، فالثلاثة متوافرة في القرآن الكريم، فقد تحدثت الثقافة عن المعجزة وانطلقت من العقل في حديثها، فلا خلاف بين هذه المعايير ولا اختلاف بين القائلين بها، والنص ودلالاته بعد ان ثبتت مصداقيته فانه يشكل المحور الأساسي للثقافة الإسلامية - في الأقل - بكل تفصيلاتها، في الأدب والفن والتاريخ والعلم والإجتماع والسياسة والإقتصاد وغيرها.

ومادامت هذه الأمور لا يمكن ان تنفك منها المجتمعات الإنسانية جميعا، فتطورت صعودا أو نزولا حسب فترات الرقي والإنحطاط الحضاري وتبعا لها. وقد بقي النص ثابتا يتحدث، ولهذا تنفك بعض الغاز الأقوال من قوله تعالى:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً (*) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[٧].

وعلى هذا قال (سهل بن عبد الله التستري): ((لو اعطي العبد بكل حرف من القرآن الف فهم لم يبلغ نهاية ما اودعه الله في آية من كتابه، لأنه كلام الله وكلامه صفته، وكما انه ليس لله نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه. وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه))[٨].

المفسرون ودلالات الإستكبار:

لقد وردت لفظة (الاستكبار) واشتقاقاتها في القرآن الكريم أكثر من (٥. موقع) من آياته. سنستعرض آراء طائفة من المفسرين القدامى والمحدثين وأقوالهم في الإستكبار وتحديد مفهوم المستكبرين، كي ننطلق منه الى تثوير النص القرآني، وبعقلانية لننقل الماضي الى الحاضر لعلنا نستشف منه آفاق المستقبل.

فقد اعتبر المفسر الرازي الاستكبار نهاية الذم وذلك ((لإرادتهم الرفعة في الدنيا وطلبهم لذاتها والترأس على عامتهم واخذ اموالهم بغير الحق، وكانت الرسل تبطل عليهم ذلك فيكذبهم لأجل ذلك ويوهمون عوامهم كونهم كاذبين ويحتجون في ذلك بالتحريف وسوء التأويل ومنهم من كان يستكبر على الانبياء استكبار ابليس على ادم))[٩].

فمن الدلالات القرأنية للاستكبار هي رفض الحق والسيطرة على أموال الغير بغير حق، وتحويل الحقائق وايهام البسطاء بدعاويهم.

ولذلك يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾[١٠].

اذا الاستكبار هنا هو التعنت للهوى والاطماع ورفض اساليب التصحيح والعودة إلى

جانب الحق والانغلاق على العنصرية الضيقة وعدم التحرر من الرجعية والجحود والتحجر[١١].

واللجوء الى منطق القوة واستضعاف الاخرين الذين يخالفون الراي أو الانصياع الى إرادتهم. بدلالة قوله تعالى ﴿فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ وكانت نتيجة استكبارهم ذاك. ان (لعنهم الله)اي طردهم من رحمته.

لذلك وصف الله اليهود بانهم ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا...﴾[١٢] بسبب الاستكبار.

بينما اشار للنصارى بانهم أقرب مودة ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ واوضح السبب كونهم (لا يستكبرون) فرفض الاستكبار لأنه يورث العداوة والبغضاء والحقد وهذه السمات لا تنتمي الى الشيم الانسانية وبذلك قيل أن ((اليهود تطرفوا في المحافظة على افكارهم وتقاليدهم، فاستكبروا عن الحق وعاندوا صاحب الرسالة، ولم تزدهم الرسالة الجديدة إلا جحودا وانكارا، اما النصارى فقد انحرفوا عن الحق بطريقه مغايرة حيث انهم فقدوا مقياس الحق والباطل، فآمنوا بكل الافكار التي وجدوا عليها صبغة دينهم، وبالرغم من ان هذا الانفتاح الواسع جرهم الى الضلالة، فإنه من الممكن أن يصبح وسيلة للهداية الى الحق حيث انهم يستقبلون الافكار الجديدة بصدر رحب ويستعدون للأيمان بها فور سماعها))[١٣].

ومن هنا نستطيع القول بإمكانية الحوار الهادف للمخالف اذا لم يتصف بالاستكبار والعناد، والا فالطريق لأقناعه مسدود. بسبب هذا الاستكبار. ولو أن خطاب الآية كان مختصا باليهود والنصارى والمعاصرين للرسول ﷺ كما يرى بعضهم، ولكن عموم الفاظ الآية تدلل على امكانية تعميم الحكم واطلاقة لجميع المستكبرين على الحق والمعاندين لمساندة العدل، والسائرين على طريق العداوة والبغضاء.

لذلك وصف اليهود انهم اشد عداوة لانهم ((تمادوا في نخوتهم لذلك، وتصلبوا في عصبتهم، واخذوا بالمكر والمكيدة، ونقضوا عهودهم، وتربصوا الدوائر على المسلمين، ومسوهم بأمر المس والمه، وهذا الذي جرى من امر النصارى مع النبي ﷺ والدعوة

الاسلامية، وحسن اجابتهم، وكذلك من تمرد اليهود والمشركين على الاستكبار والعصبية جرى بعينة بعده ﷺ على حدود ما جرى في عهدة، فما اكثر من لبى الدعوة الاسلامية من فرق النصارى خلال القرون الماضية، وما اقل ذك من اليهود والوثنيين))[١٤] وقد وصف القران الكريم بآياته المستكبرين بأنهم لا يؤمنون برسالاته قال تعالى ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[١٥] بصفات ابرزها[١٦]:

١- ((استهلاك المزيد من النعم وخلق تيار معارض للإصلاح ولأنهم يريدون ان يأكلون اكثر مما ينتجون، فانهم يسرقون انتاج الاخرين بشتى الوسائل والحيل ويستضعفونهم، ويتسارع المستضعفون نحو الرسالة الجديدة التي تبشر المجتمع بالإصلاح والعدالة، فيبدا الصراع المرير بينهم وبين اولئك المستكبرين)).

٢- المستكبرون يحاولون افساد الطبيعة والانسان معا، فيفسدون اراء المستضعفين ويجرونهم نحو الضلال كي يستغلونهم.

٣- المستكبرون يكفرون بالرسالات ليس بمجرد انها رسالة وانما لأنها مبدا يؤمن به المستضعفون، ويتخذون منه اداة لصراعهم ضدهم.

٤- دللت جميع الآيات القرآنية التي وردت فيها ذكر للمستكبرين بالعاقبة الوخيمة والنهاية المخزية للمستكبرين بسبب ذلك الاستكبار بدءا من ابليس الى جميع الجبابرة والطغاة.

فذكرت الذين عقروا ناقة صالح ورفضوا الانصياع الى رسالته[١٧] وكذلك القوم الذين عاصروا شعيب[١٨].

وذكرت فرعون والذين نصروه على الباطل[١٩] ووصفهم بانهم مجرمين. فالاستكبار في المفهوم القرآني جريمة كبرى. كون اصحابه يشكلون عائق اكبر امام الحق والعدالة والمساواة والأمن والأمان. ويسلكون طريق القوة والقتل والقهر واساليب الارهاب للذين يخالفوهم، ويؤدي ذلك الى الصراع بين قوى الخير والشر ومما يزيد الأمر تعقيدا على الأرضان أولئك المستكبرين يستخدمون بعض المستضعفين أدوات للدفاع عن مبادئهم وأهوائهم وهم في منعة من ذلك الصراع. ومن البديهي ان هذا الصراع. سيبطئ عملية البناء أو يوقف عملية

الاصلاح فتشيع سبل الدمار والضلال بدلا من سبل الامن والهدى.

((والجدير بالانتباه أن الأغنياء والملأ وصفوا بالآيات الحاضرة بالمستكبرين، ووصفت الجماهير الكادحة المؤمنة بالمستضعفين، وهذا يفيد الاول بأنهم قد وصلوا بشعورهم بالتفوق، وغصب حقوق الناس، واستغلالهم الى مرتبة ما يسمى في لغة العصر بالطبقة المستغلة))[٢٠] ولم يتكلف التحذير القرآني على المستكبرين فقط. وانما شمل التحذير اولئك الذين يلتفون حولهم من الحواشي والمتملقين لهم.

لذلك قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾[٢١].

بدلالة الملأ وهذه ((تطلق على الاشراف الاثرياء اللامعين الذين يملأ ظاهرهم العيون ويلاحظ حضورهم في كل مكان من المجتمع، وتأتي عادة في مثل هذه الآيات محل البحث بمعنى الناصرين والمشاورين والملتفين حول شخص ما..... وعلة ذلك ان مقدرات المجتمع في يد الهيئة الحاكمة، وبناء على هذا فان اي برنامج اصلاحي وثوري يجب ان يستهدف بهؤلاء اولا))[٢٢].

ولذلك اشار القرآن الكريم الى الوقوف امام هؤلاء ومقارعتهم بكل الوسائل الممكنة للوقوف امام حركة الإفساد التي يرومون الوصول اليها والتسلط على رقاب الخلق، وذلك بقوله تعالى ﴿... فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾[٢٣].

وقد وصف الله المستكبرين بالمجرمين. بهذه الآية ووصفهم بالمفسدين بالأعمال الذين يقومون بها وبالعلو في الارض. وبالمسرفين[٢٤].

وحذرا القران الكريم الضعفاء الذين يخضعون للمستكبرين، وكذا التابعين لهم بانهم سيصيبهم مثل الذي اصاب المستكبرين.

قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾[٢٥].

ودللت آيات القرآن الكريم ان عملهم هذا ليس من أفعال الإنسان الذي هو اقدس

مخلوق خلقه الله على الأرض واستخلفه فيها، وإنما هذا من عمل الشيطان الذي هو أخس وصف لمخلوق، فاتبع الإنسان الشيطان بعمله وتنازل عن قداسة خلقه بإرادته بدلالة قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢٦).

وفي الحقيقة لا يكون المستكبرون مفسدين وطغاة مالم يعنهم على طغيانهم اولئك الذين يخضعون الى ارادتهم بسبب الاطماع أو الاهواء أو التزلف اليهم للبحث عن مصالحهم ويؤيدون افعالهم بتبعيتهم لهم. أو الخضوع لمنطقتهم فيزداد تجبر المستكبرين وطغيانهم حتى على اولئك الضعفاء الذين خضعوا لهم ولإرادتهم

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (*) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ﴾(٢٧).

لعل المتتبع في الآيات التي حذرت من الاستكبار يجد فرعون ومن يحيط به اكثر من غيرة ورودا في هذا المجال ولعل هذا التكرار لقصة فرعون والتأكيد على صفة الاستكبار عنده توحي الى الحاضر والى جميع الامم بنبذ صفة الاستكبار أو الالتفاف حول المستكبرين. وان ((قصص موسى قريبة من واقع الامة الاسلامية. فلا تزال البشرية تعيش مشابهة لتلك التي عاشها قوم موسى، حيث لايزال المستكبرون من ملأ فراعنة الارض يستضعفون سائر الناس، ويجعلونهم شيعا، ويعلون في الارض بغير الحق؟ فنحن بحاجة الى التدبر في هذه القصة لتزداد وعيا وعزمنا، وجهادا حتى يأذن الله لنا بالنصر، ولذلك يذكر القران القصص زهاء سبعين مرة))(٢٨).

والمستكبر في حقيقة امره لا يملك اي مقوم من مقومات الاستكبار في بدء امره. لأنه ضعيف قياسا لما يمتلكه من قوى ومتساوي مع غيرة، ولكن الذين يحيطون به ويستضعفون بإرادتهم عنه، يجعلوه يستغل ضعفهم ويهدد حقوقهم ويساعده المستضعفون انفسهم على ذلك. فيعلو في الارض ويعيث بها فسادا. حتى يتجبر، عندها لا يستطيع المستضعفون الوقوف امام كبريائه وجبروته.

وقد خص الملأ وهم الاشراف بالذكر، لأن الاخرين كانوا اتباعا لهم فاستكبروا اي تجبروا وتعظموا عن قبول الحق.(وكانوا قوما عالين)اي متكبرين قاهرين، قهرا اهل ارضهم واتخذوا خولا[٢٩].

وقيل ((انما ذكر ملأ فرعون واكتفى بهم عن ذكر قومه لانهم الاشراف المتبوعين وسائر القوم اتباع يتبعونهم. والمراد بكونهم عالين انهم كانوا يعلون على غيرهم فيستعبدونهم كما علوا على بني اسرائيل واستعبدوهم، فعلوا في الارض كفاية عن التطاول على اهلها وقهرهم على الطاعة))[٣٠].

ويعتبر القادة والمتسلطون هم اساس الفساد بسبب استكبارهم واستعلائهم على الناس. واصلاح هؤلاء القادة الذين يمثلون اساس الفساد اصعب بكثير من اصلاح الباقين. ولا يصلح البلاد أو العباد إلا بصلاح قادتهم. لذلك اشار القران بانهم كانوا عالين، اي سبب استكبارهم على رسالة موسى والانصياع معه الى الحق لم يكن جديدا على فرعون وملئه وانما كانوا هم كذلك قبل موسى ورسالته[٣١] ولم يكن فرعون ولا ملؤه اول المستكبرين على الارض بدلالة قوله تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾[٣٢].

أي لم يكونوا أول من استكبر على الأرض فقد سبقهم غيرهم الى ذلك.

وقد ذكرت الآية ثلاثة اسماء من الجبابرة الذين إمتاز كل واحد منهم بنوع من الاستكبار.

((فقارون كان مظهر الثروة المقرونة بالغرور وعبادة (الذات) والانانية والعظمة.

وفرعون كان مظهر القدرة الاستكبارية المقرونة بالشيطنة.

وهامان فهو مثل لمن يعين الظالمين المستكبرين فأعتمد قارون على ثروته وخزائنه وعلمة، واعتمد فرعون وهامان على جيشيهما وعلى القدرة العسكرية، وعلى قوة اعلامهم وتضليلهم لطبقات الناس المغفلين الجهلة ومفهوم قولة تعالى ((وما كانوا سابقين)) اي انهم لم يستطيعوا ان يهربوا من سلطان الله برغم ما كان عندهم من امكانيات، بل هلكهم الله في اللحظة التي اراد بها، وارسلهم الى ديار العناء والذلة والخزي))[٣٣].

اي ان موسى جاءهم بالحجج الواضحات والادلة التي تخضع لها العقول وتستدل بها الحواس فاستكبروا اي طلبوا التجبر ولم ينقادوا للحق ودلالة (ما كانوا سابقين) اي فائتين الله كما يفوت السابق[٣٤] (فكلا اخذنا بذنبه) ثم عدد انواع العذاب بالآيات التي تلتها. للأقوام التي سبقت فرعون وقومه. اختلاف انواع العذاب لتلك الاقوام تبعا لشياع جريمة اكثر من غيرها ذكرها القران الكريم. فقد جاء العذاب من جنس الفعل وكأنها سنة ارتباط بين الذنب ونوع الانتقام. اي ان نتيجة هذا الفعل يكون هذا العذاب. وتعدد انواع العذاب

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٣٥].

وهذه امثله من العذاب لبعض الاقوام في حين قد سبقته انواع اخرى لأقوام اخرى.

فأنواع العذاب الذي نزل لهذه الاقوام لم يستثنِ المستضعفين عن المستكبرين وانما اصاب الجميع.

ويروي لنا القران بلسان الحكاية عن الجدال أو الحوار الذي سيقوم بين هؤلاء بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (*) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (*) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (*) وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (*) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[٣٦].

وهذا الخطاب القرآني موجه بدلالاته الى الذين استكبروا عن دعوة الرسول محمد ﷺ بدلالة قوله (لن نؤمن بهذا القرآن) فسيلقي المستضعفين اللوم على المستكبرين في حين سيتبرأ المستكبرون من افعالهم وردوا لوم المستضعفين عليهم. وينتهي الأمر بالفريقين بانهم (اسروا الندامة) اي ((معناة اظهر المستكبرون الندامة على الإضلال واظهر الاتباع الندامة على الضلال))[٣٧] ويكرر القران الكريم هذا الحوار لأكثر من مرة في آياته. ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي

النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ (*) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾[٣٨].

فيأتيهم الجواب من المستكبرين ((انا كل فيها)) اي مصيرنا وإياكم واحد.. وهذا التحذير القرآني للمستضعفين اكثر مما هو للمستكبرين لان المستكبرين كانوا متنفذين بمتاع الدنيا وكانوا مترفين فيها. بينما خسر المستضعفون الدنيا والاخرة معا فقد كانوا عبيدا وتابعين في الدنيا، وفي الآخرة مصيرهم العذاب الدائم.

ولعل في مرادفة الترف في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[٣٩].

اشارة الى الاستكبار ايضا. فلولا ان يكونوا مترفين اي يمتلكون المال والسطوة والجاه لما استكبروا على غيرهم و ((المترفون اسم مفعول من الاتراف وهو الزيادة في التنعيم، وفية إشعار بان الاتراف يفضي الى الاستكبار على الحق كما تفيدة الآية اللاحقة))[٤٠].

وحوار المستضعفين هذا مع اسيادهم المستكبرين ((يريدون بذلك إلقاء مسؤولية ذنوبهم على عاتق هؤلاء المستكبرين مع انهم لم يكونوا حاضرين للتعامل معهم بمثل هذه القاطعية في دار الدنيا لان الضعف والخور والذلة كانت حاكمه على وجودهم وقد فقدوا حريتهم، اما هناك وبعد ان تبعثرت تلك المفاهيم الطبقية التي كانت سائدة في دار الدنيا وانكشفت نتائج اعمال الجميع فهم يقفون وجها لوجه مقابل هؤلاء ويتحدثون بصراحه ويتلاومون معهم))[٤١] وهكذا كل منهم يلقي اللوم على الاخر بجدال عقيم لا يجدي الاثنان نفعا ولا يخفف عنهم العذاب. والنتيجة لهما واحدة ((والملاحظ هنا ان النص أبرز ظاهرة الرؤساء والاتباع، كاشفا بذلك بأن العلاقات الاجتماعية التي تطبع بيئة المنحرفين عصرئذ تقوم على علاقة التابع والمتبوع والمستضعف والمستكبر، وان المتبوع أو المستكبر يلعب دورا كبيرا في التأثير على الاخرين.

لكن هل هذا يعني ان التابع أو المستضعف معذور من اتباعه لرئيسه؟ هذا ما يجيب عليه المستكبرون انفسهم حينما يخاطبون المستضعفين ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾[٤٢].

اذن، المرؤوسون أو الاتباع مجرمون بدورهم ولا عذر لهم في تقبل الانحراف))[٤٣].

فاذا ما عدنا النظر بأحداث التاريخ الاسلامي وسير السلاطين والامراء الذين تعاقبوا على احداثه فانه يبين لنا اسباب التدهور الذي اصاب الأمة الإسلامية تدريجيا حتى وصلت الى ما هو عليه اليوم.

فيكون المفهوم الخاطئ للقيادة في بعض مفاصل الفكر المضاف للفكر الاسلامي بكون هؤلاء يمثلون الحكام وفق التشريع الاسلامي، هو الذي قاد المستضعفين، أو بعضهم للإذعان الى إرادات المستكبرين. وبهذا تتوسع قاعدة المستكبرين، وتقمع كل المعارضين لسياساتهم وأوجدوا لهم من خلال هذا المفهوم الخاطئ.

شرعية دينية إسلامية لتسلطهم وكبتهم للدعاة والمصلحين.

ولا تزال حلقة هذه الدعاوى دائرة، بحيث استغلها مستكبروا العالم اليوم وسيلة للنيل من الاسلام ذاته، كالقتل والدمار والإرهاب.

((ولو عقل الناس هذه الحقيقة لانهارت اسس الظلم في المجتمعات، حين يعلوا المستكبرون فيها، ويعيثون فسادا، ويتبعهم المستضعفون زاعمين أن ذلك يلقي المسؤولية عن كاهلهم ويجعلهم مبرئين من الجرائم التي يرتكبوها بحق بعضهم، ويقولون: المأمور معذور، وكأن الله أمرهم باتباعهم، أو انه خلقهم مستضعفين وجعل اولئك مستغلين عليهم.

ومن صور الفكر التبريري الذي يعتمده الإنسان: اعتقاده بأن الزمان هو الذي يفرض عليه نوعا من السلوك، فيلقي عليه اللوم.

إن تطاول واستمرار تضليل المستكبرين للمستضعفين مع خبث الأساليب وتنوعها له دور كبير في الإضلال، ومع هذا مما لا يجد معه المستكبرون دفعا له إلا أن هذا لا ينفع المستضعفين المتابعين لهم))[٤٤].

ولعل من الدلالات التي تنطبق على مصطلح المستضعفين أيضا ((هم أولئك الذين يفتقدون العلم الكافي، أو الاستقلال الفكري، إذ كان هؤلاء يتبعون زعماء الكفر الذي يطلق عليهم القرآن إسم المستكبرين، وكانت التبعية مجرد إنقياد أعمى بلا تفكير أو وعي))[٤٥].

ودللت الآيات القرآنية أن ذلك الأمر لم يكن خاصا باليهود أو فرعون أو المخاطبين به عصر نزوله، وإنما هي سنة تاريخية دائمة لا تتبدل ولا تتحول الى غيرها، وذلك بقوله تعالى: ﴿اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[٤٦].

لذا قيل ((أن المراد سنة الأولين إستمرارهم على الإنكار واستكبارهم عن الإقرار، وسنة الله استئصالهم باصرارهم فكأنه قال: أنتم تريدون الإتيان بسنة الأولين والله يأتي بسنة لا تبديل لها ولا تحويل عن مستحقيها...أو...حصل العلم بأن العذاب لا تبديل له بغيره... ولا يتحول عن مستحقه الى غيره فيتم تهديد المسيء))[٤٧] فيكون الإستكبار سببا للشقاء، والشقاء نتيجة حتمية لأفعال المستكبرين، ومداهنة المستضعفين لهم،((وهذه القوانين كما انها حكمت في الماضي فإنها اليوم وغدا. ومجازات المستكبرين الكفرة الذين لم تنفع بهم الموعظة الإلهية من هذه السنن، ومنها ايضا نصرة أتباع الحق الذين لا ينثنون عن جِدهم وسعيهم المخلص، هاتان السنّتان كانتا ولا تزالان ثابتتين أمس واليوم وغدا))[٤٨].

وقد اعطى القرآن وفق المنهج العلمي التطبيقي تجارب حية مرت على التاريخ الإنساني نتيجة لأعمال المستكبرين التي حصلوا عليها من إستكبارهم لينقلنا من الأخبار النظرية التي من الممكن للبعض تصديقها أو إنكارها بسبب عدم إيمانهم بالقائل وإن كان خالقهم، فنقلهم الى مراجعة التطبيق ان شاءوا التأكد من النظرية وسنة الله في خلقه، فأعطى للفكر التاريخي دعما ان يكون شاهدا حيا على نتيجة أعمال الأجيال، وللحاضر موعظة من مغبة أفعالهم، وذكرهم برحمته التي انعمها عليهم فقال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً (*) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾[٤٩].

ولعل دلالة المفعول المطلق المؤكد لفعل الإستكبار في قوله تعالى:

﴿... ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾[٥٠].

((يفيد التأكيد والتهويل، أي استكبروا أيما إستكبار فاحش، تحدوا به الحق رمزا وقيما، وهذا تمهيد لتبرير الحكم الإلهي بعذابهم تبريرا موضوعيا))[٥١].

ومن هنا يتحدد مفهوم الإستكبار حتى وإن تعددت دلالاته واصطلاحاته، وتباينت

طرقه، فالإستكبار السياسي بالقوة والتسلط، وبالعدد والعدة، والإستكبارالإقتصادي بالمال والثروة واستغلال ثروات الشعوب، والاجتماعي بالجاه والمنصب، والإستكبار الفكري بالعلم والتقدم وتوجيههما وجهة الإفساد والدمار، كلها تندرج تحت مفاهيم الإستكبار إذا كانت تؤدي الى التعدي على الغير واستغلالهم واستعبادهم أو التحكم بهم وبثرواتهم، وإعانة المستكبرين بتلك الوسائل يعد ساندا لهم، وإن كان نقيضا لصفاتهم (الإستضعاف) لأنه يعين المستكبرين على التسلط. والنتيجة النهائية لكليهما السقوط في الدنيا والخزي في الآخرة.

وإذا ما شاءت الأمة الإسلامية النهوض من واقعها المتردي، لا طريق لها سوى الإنطلاق من دستورهم العظيم الذي يتفقون عليه، لأننا اصحاب حضارة منطلقة من نص، وتدور حول النص. وهذا النص لا يشكل المنطلق الوحيد، وليس له مفهوم واحد ثابت، وإلا تحجرت ثقافتنا وانتهت حضارتنا.

وهذا ما حدث فعلا عندما أوقفت في بعض مسالكها حركة العقل وبقيت الدراسات تجتر أحوال القديم، ولا تنفلت من الماضي كونه قدس الأقداس إلا بإشارات أكثرها عفوية وغير مقصودة، وإذا كان هناك ثمة إنطلاقة الى ما وراء الأفق أو في التحليق في البعيد، فإنها ستكون خجولة، أو ستجد ثورة عارمة ضدها، ربما تصل الى درجة (التكفير) من بعضهم كما هو اليوم.

لذلك فإننا نحتاج الى رؤية جديدة للنص توافق العصر وتفتح آفاق المستقبل، ولا تبتعد كثيرا عن الإصالة ولا يغوص كثيرا في التماهي أو الحداثة، وبهذا يكون ((التراث إذا ليس له وجود مستقل عن واقع حي يتغير ويتبدل، يعبر عن روح العصر، وتكوين الجيل، ومرحلة التطور التاريخي. التراث إذا مجموعة التفاسير التي يعطيها كل جيل بناءً على متطلباته، خاصة وإن الأصول الأولى التي صدر منها التراث تسمح بهذا التعدد لأن الواقع

هو اساسها الذي تكونت عليه، ليس التراث مجموعة من العقائد النظرية الثابتة والحقائق الدائمة التي لا تتغير، بل مجموع تحققات هذه النظرية في ظرف معين، وفي موقف تاريخي محدد، وعند جماعة خاصة تضع رؤيتها وتكون تصوراتها للعالم))[٥٢].

فقوى الإستكبار العالمي اليوم قد انتهجت مناهجا متعددة للوقوف أمام الصحوة الإسلامية ومحاولة الوعي المدرك لما يحيط بالأمة، وتحاول ان تحدد مسار هذه الصحوة أو تغير من مناهج ذلك الوعي بحجج واهية تزيد العتمة على ابصار الجهلاء والبسطاء من الأمة وهم السواد الأعظم منها.

واتخذت سنة الإختلاف عند بني الإنسان حجة ووسيلة للنيل من الإسلام والمسلمين شاهرة دعوات ظاهرها الإصلاح والحرية والعدالة والمساواة، واضعة نفسها نائبة عن الله في الأرض وعن المستضعفين، متلبسة بلباس الإنسانية والدفاع عن (حقوق الإنسان) وهي ابعد عن الحق وعو الإنسان ذاته فعاثت في الأرض فسادا ودمارا وتسابقت في التسلح وصناعة الموت، واستهدفت بالدرجة الأولى من عدائها الإسلام والمسلمين ونهبت ثرواتهم عن عمد بحجج واهية لا تمت الى التفكير السليم بصلة ولا تنطلي حتى على اسذج الناس، واتهموا الإسلام بالنعوت والإصطلاحات التي كانوا هم احق بها من غيرهم ((غاية الأمر أن المسلمين يسمون أمة الإجابة، وغيرهم يسمون أمة الدعوة، فالجميع امته،

بهذه العبارة يتحدث شيخ علماء المغرب (عبد الله كنون) عن ميزان العدل في الإسلام، بين جميع الطوائف والعناصر، من غير اعتبار لون أو نزعة أيا كانت، وفي هذا الإتجاه، تصب أفكار واجتهادات العديد من فقهاء المسلمين، الذين يبنون مواقفهم على حقيقة أن بني آدم خرجوا (من نفس واحدة) وأن (الخلق كلهم عيال الله)، وهو إتجاه تحدد معالمه أبعاد قيمة العدل الإلهي، بكل تجرده وسموه، إذ لا إنحياز ولا محايدة لأحد، لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل أنه أمام (الموازين بالقسط يوم القيامة) - بالتعبير القرآني - تسقط فيه الهويات والأنساب والألقاب، ويبقى شيء واحد يحتكم إليه في الثواب والعقاب، هو العمل الصالح أولا، والعمل الصالح أخيرا))[٥٣].

جعل الله عملنا هذا نية خالصة لمرضاته، وجنب الأمة الإسلامية مكائد الأعداء وردها في نحورهم وهدانا الى سواء السبيل ونستغفره من الخطأ والنسيان وشطحات الفكر وزلات

القلم، سائلين عفوه ومغفرته في بحثنا في كنه كلماته. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

هوامش البحث

(١) الرماني: النكت في اعجاز القرآن: ٣٥ وانظر كذلك ص ٧٦
(٢) إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي: ٦٦، ٦٧
(٣) سورة البقرة: ٢٨٦
(٤) سورة محمد: ٢٤
(٥) نصر حامد ابو زيد: مفهوم النص: ٢٧
(٦) سورة الكهف: ١٠٩، ١١.
(٧) الزركشي: البرهان في علوم القرآن: ١ / ٩
(٨) الفخر الرازي /التفسير الكبير: مج /١: ج / ٣ / ٥٩٦
(٩) سورة البقرة: ٨٧
(١٠) ينظر: المدرسي (السيد محمد تقي):من هدى القرأن:ج٢١/١.
(١١) المائدة/٨٢
(١٢) المدرسي: من هدى القران: ٢٦٨/٢
(١٣) الطباطبائي: الميزان في تفسير القران: ٨/٦..
(١٤) سورة الاعراف: ٧٦
(١٥) ينظر / المدرسي: من هدى القران:٦٢/٣ومابعدها
(١٦) ينظر / سورة الاعراف /٧٧
(١٧) ينظر / سورة الأعراف / ٨٨
(١٨) ينظر /سورة يونس / ٧٥
(١٩) الشيرازي (الشيخ ناصر مكارم): الامثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٤/ ٤١٦.
(٢٠) سورة يونس /٧٥
(٢١) الشيرازي: الامثل: ٥٢٣/٥
(٢٢) سورة التوبة /١٢
(٢٣) ينظر / سورة يونس / ٧٥، ٨١، ٨٣
(٢٤) سورة ابراهيم / ٢١

(٢٥) سورة إبـراهيم / ٢٢
(٢٦) سورة المؤمنون/ ٤٥، ٤٦
(٢٧) المدرسي: من هدى القران: ٤٦١/٥
(٢٨) ينظر: ا لطبرسـي: مجمع البيان: مج٧ / ٢٩٢
(٢٩) الطباطبائي : الميزان: ٣٤/١٥
(٣٠) ينظر / الشيرازي : الامثل:٤٩٨/٨.
(٣١) سورة العنكبوت /٣٩
(٣٢) الشيرازي / الامثل: ٨ /٥٧
(٣٣) ينظر الطبرسـي: مجمع البيان:مج٣٨/٨
(٣٤) سورة العنكبوت: ٤.
(٣٥) سورة سبأ: من ٣١ الى ٣٥
(٣٦) الطبرسي: مجمع البيان: مج ٨ /٣١٦
(٣٧) سورة غافر أو المؤمن: ٤٧، ٤٨
(٣٨) سورة سبأ : ٣٤
(٣٩) الطباطبـائي: المـيزان: ١٦ / ٣٨٨
(٤٠) الشيرازي:الامثل /٥٦٢/.١
(٤١) سورة سبا: ٣٢
(٤٢) البستانـي: التفسير البنائي للقران الكريم: ٣ /٥٢٤
(٤٣) المدرسي: من هدى القرآن: ٧ / ٢٨٧، ٢٨٨
(٤٤) الشيـرازي: تفسير الأمثل: ١٢ / ٨٨
(٤٥) سـورة فاطر: ٤٣
(٤٦) الفخر الرازي: التفسير الكبير: مج ٩ / ج ٢٦ / ٢٤٧
(٤٧) الشيرازي: تفسير الأمثل: ١١ / ٩٣
(٤٨) سورة فاطر: ٤٤، ٤٥
(٤٩) سورة نوح: ٧
(٥٠) المدرسي: من هدى القرآن:١١ / ٢٦١
(٥١) حسـن حنفـي: التراث والتجديد:١٣
(٥٢) فهمي هـويـدي: القرآن والسلطـان: ١٨٩

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

١- إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي، ط: ١: دار الهادي: بيروت: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٢- البستاني (الدكتور محمود): التفسير البنائي للقران الكريم، ط: ١، مؤسسة الطبع التابعة للإستانة الرضوية المقدسة: ايران، ١٤٢٣هـ.

٣- حسن حنفي: التراث والتجديد، دار الطليعة: بيروت - لبنان

٤- الرماني (ت ٣٨٦هـ): النكت في اعجاز القرآن، مطبوع ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله احمد، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف: القاهرة - مصر ١٩٧٦م.

٥- الزركشي(محمد بن بهادر عبد (ت٧٤٩هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة: بيروت: ١٣٩١هـ.

٦- الزملكاني (عبد الواحد بن عبد الكريم ت ٦٥١هـ): البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، تحقيق: د. خديجة الحديثي، د. احمد مطلوب، ط: ١، مطبعة العاني: بغداد: ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٧- الشيرازي (الشيخ ناصر مكارم): الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ط: ١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت - لبنان: ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م

٨- الطباطبائي (السيد محمد حسين): الميزان في تفسير القرآن، ط:١ : دار المجتهدي للمطبوعات: قم - ايران: ٢٠٠٩م، ١٤٣٠هـ

٩- الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القران والفرقان، ط/١: دار الاسوة للطباعة: طهران :١٤٢٦هـ

١٠- الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ): التفسير الكبير، ط: ١: دار احياء التراث العربي: بيروت: ٢٠٠٨م، ١٤٢٢هـ.

١١- فهمي هويدي: القرآن والسلطان، ط / ٤: دار الشروق: القاهرة: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

١٢- المدرسي (السيد محمد تقي): من هدى القرآن، ط:٢: دار القارئ: بيروت: ١٤٢٩هـ -٢٠٠٨م

١٣- نصر حامد ابو زيد: مفهوم النص، دار الطليعة: بيروت - لبنان.